... تَواضُع الفَاتحين...

في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، توجّه رسول الله ﷺ نحو مكة المكرمة ، ومعه عددٌ كبير من الصحابة ، لكن هل اغترّ وتكبّر بذلك الفتح المبين؟ وهل أخذ ثأره من أهلها وقد عذّبوه . . وقتلوا بعض أصحابه و . . . ؟

قال ابن إسحاق: . . . فحدّثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهىٰ إلىٰ ذي طوىً وقف علىٰ راحلته معتجراً[1] بشقّة بُرد حَبِرة حمراء ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأىٰ ما أكرمه الله به من الفتح ، حتىٰ إن عُثنونه[2] ليكاد يمسُّ واسطة الرّحل[3] .

وعن عبد الله بن مغفّل المزني رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح علىٰ ناقةٍ له يقرأ من سورة الفتح[4] .

وكانت من وصايا المصطفىٰ ﷺ قبيل فتح مكة: «لا تُجهزن علىٰ جريح، ولا يُتبعنّ مُدْبر، ولا يُقتلنّ أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن»[5] .

ثم راح الرسول ﷺ يطوف بالبيت الحرام ، وأمر بتطهيره من الأصنام:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح علىٰ راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنامٌ مشدودةٌ بالرصاص ، فجعل

---

(١) أي: يلف العمامة علىٰ رأسه وقد بدا وسط رأسه.

(٢) أي: منتهى لحيته.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٤.

(٤) صحيح البخاري: ٩/ ١٩٢.

(٥) فتوح البلدان للبلاذري: ٥٣.

النبيّ ﷺ يُشير بقضيبٍ في يده إلىٰ الأصنام وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فما أشار إلىٰ صنمٍ منها في وجهه إلاّ وقع لقفاه، ولا أشار إلىٰ قفاه إلا وقع لوجهه، حتىٰ ما بقي منها صنمٌ إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:

وفي الأصنام معتبرٌ وعلمٌ ... لمن يرجو الثوابَ أو العقابا[1]

أجل يا رسول الله ﷺ!

ما هذا التواضع العجيب، حيث لم نسمع بذاك في تاريخ الأبطال والفاتحين، فعادة ما يكون الفاتح في نشوة النصر، وعادة ما يُظهر الكبر والبطر والفرح أثناء ذلك، غير أنك يا رسول الله، أنت الذي وصفك الله في قرآنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فعليك الصلاة والسلام في كل وقتٍ وحينٍ يا صاحب الخلق العظيم:

صلوات الله تَتْرىٰ عليه ... وعليهم طيباتٍ عذابا
يفتح الله علينا بها من ... جوده والفضل باباً فبابا
ما انتضىٰ الشرق من الصبح سيفاً ... وفرىٰ من جنح ليلٍ إهابا

* * *

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٧.